مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 9/ العدد: 02 (2021)، ص 622- 639

الإنسان عند جون جاك روسو
The man to John Jacques Rousseau

بن صابر محمد [1]، بن حليلم شوقي [2]
[1] كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2- الجزائر
[2] كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2 الجزائر

تاريخ الاستلام: 2021/06/02 تاريخ القبول: 2021/08/30 تاريخ النشر: 2021/10/07

ملخص:

يعتبر موضوع الإنسان من بين الإشكاليات الفلسفية عند جون جاك روسو، فقد أمن بالإنسان الطبيعي الأول المتوحش لما يمتلكه من قيم تؤطرها فطرة سليمة، بإبقاء فضائل الطبيعة وتنميتها وفق منهجية تربوية شاملة تراعي كل حاجات الفرد واهتماماته الدينية السياسية الأخلاقية الجمالية الفنية في دولة ضمن مشروع عقد اجتماعي أساسه المواطن.

يقارن روسو الإنسان بالإنسان الطبيعي، ليس لأنه يرى أن الإنسان صالح بالطبع وإنما لإظهار ما كان عليه الإنسان في الحالة الطبيعة، وما أصبح عليه في الإنسان المدني، فالحالة الطبيعية التي نشأ فيها الإنسان الأول في نظره كان فيها أسعد حالا لأنه لا يعرف الخير والشر.

كلمات مفتاحية: الإنسان، المجتمع، الطبيعة، العقد الاجتماعي، الحرية.

Abstract:

The human subject is considered among the problem philosophy, that Rousseau believed in first nature of man (savage) for his values regulated by common sense, where he kept natural virtues developed with a comprehensive educational methodology that takes into account all the needs of individuals and religious, political, moral and aesthetic interests, in a State within a project of social in a State within a project of social contract based on the citizen.

Compared Rousseau man to the natural man, not because he sees that is of course good, but to show what man was in the natural state and what he became in the civil man, the natural state in which the first man grew up in his view was in it happier because he did not know good and bad.
Keywords: Human; Society; Nature; Social Contract; Freedom

المؤلفان المرسلان: د/ بن صابر محمد، د/ بن حليلم شوقي

1. مقدمة:

ظهر الإنسان كمفهوم بارز مند فجر التاريخ الأول، وقد خضع لنظام المجتمع البدائي الذي كان يتجاهل حريته وطبيعته، فكان خاضعا إما لنظام إقطاعي أو سلطة دينية تسير حياته وتتحكم في كل شؤونه الحياتية من استغلال واستبداد لحريته.

يعتبر جون جاك روسو John Jacques Rousseau من أهم الفلاسفة الفرنسيين الذين قدموا خدمات للإنسان وتحريره من قيود الكنيسة، كما ساهمت فلسفته في قيام الثورة الفرنسية وسقوط الحكم الملكي بقيادة لويس العاشر، وتصدر النظام الديمقراطي الحكم. لقد تميز روسو بتمرده على عصره وتهجمه على المدنية وكان يرى تنافي أخلاقيات العصر للرقي الفكري، فسخط ضد الأعراف وأدان السلوكيات، التي صاحبت هذا الرقي وتصديه لمن يدعون الحكمة والعلم وتعسف السلطة الحاكمة هذه الأفكار شكلت فلسفة التعاقد الاجتماعي عنده.

كان روسو من الفلاسفة الذين أرسوا مبادئ حقوق الإنسان يتمتع من خلالها بجميع الحريات التي تكفلها له الطبيعة من جهة، والنظام السياسي من جهة أخرى الذي يشكل نظام الدولة التي تضمن الحقوق والواجبات للمواطن.

نظرت اليونان القديم إلى الإنسان إما كمواطن أو بربري هذا ما نلمسه في أثينا من خلال نظام حكمها السياسي، أو هو إنسان كافر ومؤمن يعيش تحت الوصاية الدينية خاصة في العصور الوسطى، ومزال يصارع مطلب حقوق الإنسان خاصة في ظل الأنظمة الاستبدادية الحالية، وبقي يواجه صعوبات في تحقيق هذا المطلب الإنساني.

على هذا الأساس يمكننا أن نطرح إشكالية ما الإنسان في فلسفة روسو؟ و على ضوئها يمكن أن ندرج بعض الفرضيات من هو إنسان روسو؟ هل هو إنسان طبيعي أم إنسان مدني ؟ ما علاقة الإنسان بالطبيعة ؟ وأين يكمن أثر فلسفة روسو على الساحة الأوربية في عصره ؟

نهدف في هذه الورقة البحثية إلى إثراء موضوع الإنسان وعلاقته بالطبيعة حسب روسو، وقد وظفنا المنهج التحليلي من أجل تحليل الأفكار، التي قدمها روسو في فهمه للإنسان في بناء ذاته، كما وظفنا المنهج التاريخي من أجل التطرق إلى تاريخ الإنسان في الحقب الفكرية.

2. الإنسان الطبيعي ومميزات الحالة الطبيعية

1.2 تصور الإنسان عند روسو:

إن تحديد روسو لحالة الإنسان الطبيعي مبنية على معطيات افتراضية وفي نفس الوقت اعتبرها مسلمات صحيحة، لهذا يرى أن النتائج المتوصل إليها تحمل كثير من الصحة سواء في النواحي الاجتماعية أو القواعد السياسية التي دعا إليها. وكتب روسو يقول : "ولكننا ما دمنا على جهلنا بمعرفة الإنسان الطبيعي فمن العبث أن نحاول تحديد القانون الذي استمده هو من الطبيعة أو ذلك الذي يلائم تكوينه أكثر من غيره، وكل ما يمكننا أن نراه في موضوع هذا القانون هو أنه يجب لكي يكون قانونا ليس فقط أن تستطيع الإرادة الملزمة به تخضع له، وهي

تدركه بل يجب أيضا لكي يكون هذا القانون طبيعيا أن يتكلم بصوت الطبيعة "(روسو،1972،ص30)

يحاول روسو التعرف على ظروف الإنسان الراهن الذي يجزم فيه أن حالته أسوأ بكثير من حالة الإنسان الأول الذي وبالرغم من وسائل الرفاهية في مرحلته، إلا أنه لم يعش ظروف الحياة الصعبة التي عرفتها الحياة الراهنة، والتي اعتمد فيها الإنسان على العلم والصناعة. إن جميع الكتب والدراسات السابقة لا ترينا صورة الإنسان الطبيعي بل توضح لنا المرحلة التي صنع فيها الإنسان نفسه، أي الفرد الذي يعتمد على ذاته في الغذاء والحماية ولا يتعرض لغيره بسوء ومن هذا المبدأ فلا حاجة لنا أبدا أن نجعل من الإنسان فيلسوفا قبل أن نجعل منه إنسانا.

من هذا المنطلق تعتبر نظرة روسو أن الإنسان الطبيعي في المرحلة الطبيعية أي البدايات الأولى لنمط العيش، إنه كان متوحدا منفردا في الغابة لم يكن يتقن اللغة ولا أية حرفة وكانت القدرة على محاكاة الغرائز والتفوق على الكائنات الأخرى في تحصيل ما يحتاج إليه، فهو إنسان من ميزاته صحيح الجسم لا تصيبه العلل، وبالتالي فهو في غنى عن الطبيب الذي ترفضه فلسفته خاصة من خلال التربية التي حددها لإميل وحتى وإن اعتلى هذا الإنسان مرض فهو ليس بحاجة إلى أدوية وقد يكون بحاجة غالى الأعشاب وما شابه ذلك.

كما أن الفرد حسبه ووحيد عكس مقولة الإنسان الحيوان الاجتماعي، التي تول بطبيعة الإنسان الجماعية وأنه لا يستطيع أن يعيش أو أن يبدع إلا في نطاق المجموعة، وإن كنا لا نختلف في قولنا أن الأسرة حالة أساسية للحفاظ على النوع البشري، وهذا لا يتأتى إلا بالاجتماع ومن ثمة اجتماع الأسر يعني وجود مجتمع والإنسان الأول حسب روسو كان متوحدا في الغابة لا يعرف أهله، ولعله لم يعرف حتى أولاده لا لغة ولا صناعة ولا فضيلة ولا رذيلة. والفضيلة في تلك الحالة

قد كانت مطبوعة في كل النفوس وامتهانها لم يكن إلا بعد تلك المرحلة، وذلك لأن الإنسان الطبيعي لم تكن له مع أفراد نوعه أية علاقة يمكن أن تصير علاقة أخلاقية "(كرم،1990،ص202).

هذه الميزة التي طبعت الإنسان البدائي نابعة من كفايته لنفسه ويركز روسو على الأسرة على أنها أقدم أشكال التجمعات البشرية، ويعتبرها نقطة جوهرية في مشروعه التربوي نقطة أساسية ومهمة ويخلف أراء كبار علماء التربية مثل أفلاطون، الذي يرى أن الدولة هي الأسرة الكلية الأساسية التي تفرض النظام التربوي وقواعده، لكن مع هذا فان الأسرة ليست مجتمعا دائما مستمرا بل هو تجمع وقتي تفرضها شروط وتنتفي بانتهاء هذه الحاجات فمثلا كانت الأم في أول الأمر ترضع أطفالها عن حاجة بها ثم جعلتهم العادة لديها وجعلتهم تغذيهم، بعد ذلك لحاجاتهم إلى الغذاء وكانوا إذا اكتسبوا من القوة ما يستطيعون به التماس أقواتهم لا يلبثون أن يتركوا الم نفسها "و الأسرة نفسها لا تبقى أسرة إلا بالتعاقد (بريبه،1979،ص199) وهنا نصل إلى الحالة الاصطناعية، ونقصد هنا التحول من الحياة الطبيعية إلى المدنية ويتشكل الاجتماع الأسري والأسرة تملي على الرئيس وهو الأب واجبات وعواطف طبيعية، فهذه مغايرة في المجتمع السياسي الذي غالبا ما يطلب فيه القائد مطالب لا يرتبط بمدى تحقيقها لسعادة الأفراد والقول بطبيعة الإنسان الأول القائمة على القوة والسيطرة والأنانية، والتي نجدها في فلسفة توماس هوبس ليست كذلك لأن الإنسان المتوحش حسب روسو كان هائما لا صناعة ولا كلام ولا مسكن ولا حرب ولا حاجة لأمثاله ولم يكن هناك رقي ولا تربية .

لقد كان هدف الإنسان الطبيعي منحصرا في الأساس الحفاظ على بقائه، وهي غريزة يجب أن تتجسد أولا بالتناسل عبر الجنسين وتوفير الطعام والأمن وكتب روسو يقول: " الخبرات الوحيدة المعروفة وهي الطعام والراحة والأنثى، أما

الشرور التي يخشاها فهي الوجع والألم"(روسو،1972،ص68). أما الغريزة التي تميز بها الإنسان البدائي حسب روسو هي امتلاكه لصفتي التعاطف والرحمة، وهنا يتبنى الطرح القائل: " اعمل ما فيه خيرك بأقل ما يمكن أن يلحق من الأضرار بغيرك "(روسو،1972،ص52) معنى ذلك مراعاة خصوصيات الفرد الذي يعيش معه في بيئة واحدة وبحركة دؤوبة على إعانته وفق هذه الغريزة وهي العاطفة " فمن المؤكد أن الرأفة عاطفة طبيعية تحد كل شخص من نشاط حبه لنفسه تساعد على تبادل حفظ البقاء للنوع كله، فهي التي تدفعنا الى أن نهب من غير وتر الى إسعاف من نراهم يعذبون وهي التي في حال الطبيعة تقوم مقام القوانين والأخلاق والفضيلة وهي التي تصد كل متوحش قوي أن ينتزع من ولد ضعيف أو شيخ عاجز". حسب روسو فخصال الإنسان الطبيعي جعلته يعيش في نظره حياة سعيدة قائمة على سيطرة العواطف غاب فيها الصراع والسيطرة بين هؤلاء الأفراد وهذه المواصفات انعدمت في الإنسان المعاصر ويعود ذلك إلى تعقد الحياة بفعل عمل الإنسان الذي أراد التغير و وضع القوانين التي تكبل قيود الناس وتحرمهم الحرية التي يتميز بها الإنسان عموما .

2.2 مميزات الحالة الطبيعية:

قد يكون الكلام عن مميزات الحالة الطبيعة للإنسان الطبيعي مجرد افتراضات معلقة على شروط من شأنها أن توضح طبيعة الأشياء أكثر مما تهدي إلى أصلها الحقيقي، وهي شبيهة بالبحوث التي يقوم بها علماء الطبيعة حول تكوين العالم، وهي في الأخير حقائق تخمينية نجعل منها مسلمات من أجل المعرفة وتشبه إلى حد بعيد القضايا الإيمانية، مادام أن الله خلق الناس غير متساوين وأخرجهم من الطبيعة الأولى واستنادا إلى الواقع، ففلسفة روسو تستخدم منهج شمولي في توضيح هذه الصورة ويقصد الإنسان بقطع النظر عن الحضارة التي ينتمي إليها أو

الأمة التي عاش فيها أو يخص الإنسان في زمان محدد أو مكان معين وفي هذا الصدد يقول: " إن موضوعي يسترعي اهتمام الإنسان على وجه عام فاني سأجتهد أن يكون أسلوب تعبيري ملائما لجميع الأمم بل إنني إذا أتناسى الأزمان والأمكنة وإذ لا أفكر إلا بالناس الذين أخاطبهم، سأفترض نفسي في مدرسة أثينا أعيد تلاوة دروس معلمي متخذا أمثال أفلاطون وكسينوقراط قضاة والجنس البشري مستمعا "(روسو،1972،ص36)

إن قراءة روسو للإنسان البدائي ولطبيعته التي تواجد فيها خالية من أي اثنيه أو مذهبية بل قراءة موضوعية لا تهتم بجنس أو دون أخر، و تتضح الرؤية التي توضح الفرق بين الإنسان والذي عاش في الحالة الطبيعية والإنسان المعاصر، الذي غيرت الحياة من عاداته بسبب الأنظمة الفاسدة والحالة الطبيعة هي حالة فضيلة وسعادة وصفاء، وهي حالة مساواة وهذه المزايا هي التي حققت مفهوم المساواة بين الحقوق والواجبات بين الأفراد " وبالتالي فالمظاهر الاجتماعية الناشئة عن العلاقات الإنسانية التي تتكون بعد المرحلة الطبيعية، التي تدعي توفير الهدوء والسكينة للإنسان هي في واقع الأمر تزيده شقاء وبؤسا ويقول روسو: " كم تغيرت أيها الإنسان عما كنت عليه هذه حياة نوعك سأصفها لك طبقا للصفات، التي أعطيتها والتي أفسدتها تربيتك وعاداتك ولكن دون أن تقوى على محوها "(روسو،1972،ص37)

ومن مظاهر الحياة الاصطناعية سيادة الظلم والاستبداد ولكن أليس من العبث أن نسمي الإنسان المعاصر بالمستبد في ظل القوانين التي تدعو الى العدل والمدنية، التي تحفظ حقوق الإنسان وقد نلقب الإنسان المتوحش بالإنسان العادل المحترم لأخيه، وهو الذي تسيره الشهوة ولا تضبطه أية نواميس وضعية اتجاه غيره .

إن مفهوم الاستبداد عند روسو الذي يعالجه في توضيح الحالة الطبيعية ليس المقصود به أن يعتدي شخص على أخر أو يسود بعض الناس عن آخرين بنوع من العنف، وإنما حسب اعتقادنا أن الاستبداد بمفهومه الضيق أي وفقه الموجود فقط في الحالة المدنية، أو يطلق على الأفراد الذين وصلوا إلى الحالة السياسية ومن غير المنطق أن نصف أناس في الحالة الطبيعية لم يصلوا إلى سن القوانين وتقنين العلاقات الاجتماعية بأفراد مستبدين همجيين، وهنا روسو لا ينكر أبدا تصرفات الإنسان المتوحش الذي ربما يقاتل من أجل الغريزة الجنسية أو الشهوة العصبية أو الأكل، لكن من دون أن يمنع أناس آخرين منها كليا وكتب روسو في هذا السياق يقول: " إنني لا أرى كيف يقال مثل هذا القول في أناس متوحشين يشق علينا أن نحملهم على الإدراك معنى الاستعباد والسيادة إن الرجل منهم يمكنه كل الإمكان أن يستولي على ثمار قطفها الأخر وعلى طريدة قتلها وغار يلجأ إليه ولكن كيف يمكنه أن يتوصل إلى إلزامه بالطاعة ؟ وما الذي يمكن أن تكون عليه أغلال التبعية بين أناس لا يملكون شيئا، أي لا توجد ملكية كل شيء مشاع بين الناس ويتساءل روسو أهناك رجل قوته فوق قوتي بلغ به الفساد والكسل والضراوة مبلغا دعاه إلى إكراهي ؟

إن الوضعية المذكورة تنفي كل مظاهر الاستغلال أو الاستعباد حسب الفهم المتفق عليه عموما في اعتقادنا هو تبعية الناس لبعضهم، أو حاجة كل واحد للأخر أو تكون سلطة معينة تسير وفق قوانين تفرض على الأفراد إتباعها، وذلك حسب نظرة روسو فانه من المستحيل استعباد إنسان دون أن تضعه قبل ذلك في حال لا يستطيع فيها الاستغناء عن غيره، وهذا الوضع إذا لم يكن موجودا في حال الطبيعة فكل إنسان كان فيها طليقا من النير، وكانت شريعة الأقوى باطلة(روسو،1972،ص75) لأن القوة حقا هي التي تفرض على

الأشخاص الطاعة وتجريدهم من الحرية. وبالتالي أبرز روسو فكرة عدم وجود التفاوت في الحياة الطبيعية والكل يعيش وفق متطلباته وغرائزه وهذه الحالة الطبيعية البشرية، لم تبق وتحولت حياة الإنسان من طور الطبيعة الى طور الحياة الاجتماعية، وأصبح الإنسان يعاني منذ أن دخل هذه المنظومة فكيف حدث هذا الانتقال ؟ وكيف تشكل التفاوت ؟ وتحت أي ميثاق تمت هذه النقلة ؟

3. التفاوت الاجتماعي في ظل الحالة المدنية:

1.3 الإنسان الطبيعي:

إن تحول الإنسان الطبيعي سيفقده الكثير من المزايا والتي وصفها روسو وسيعوضها بصفات وفضائل جديدة، ستجعل منه إنسانا يمتاز بأوصاف لم تكن من قبل فمثلا ستغدو الغريزة في الحياة الأولى إلى العدالة في الحالة الثانية، هذا الانتقال من حال الطبيعة إلى حال المدنية أوجد في الإنسان تبدلا ملحوظا إذ أحل في سلوكه العدل محل الوهم الفطري وأكسب أفعاله أدبا كان يعوزه لا من قبل عند ذاك فقط، إذ حل صوت الواجب محال الباعث المحرك الجسماني والحق محل الشهية . (روسو،1972،ص80)إن هذا الانتقال من الحياة الطبيعية إلى الحالة المدنية جعلت من قوة الإنسان في النمو وتتسع أفكاره وتتوازن عواطفه، وهذا ما أضفى على أفعاله صفة أخلاقية بعدما كانت سلوكياته من قبل لا نحكم عليها بالخيرية أو الشريرة، لأنها لم تمس غيره فلم يكن هناك أذى أو ظلم ولا معايير يستند عليها في إصدار الأحكام، وفي هذه المرحلة فهو مسؤول عن أفعاله لأنه اكتسب صفة العقل ومن ثم فهذه الأعمال نستطيع أن ننسبها إلى الصفات الأخلاقية.

وبالمقارنة بين النمطين الذي عايشهم الإنسان في الحياتين نلاحظ فرقا واضحا بين المدنية التي تجعل من الإنسان إنسانا بالمعنى الحقيقي، إنسان مبدع متميز بالتفكير وحريته ليست مطلقة تعتدي على الأخر بل تراعي شخصيات وأقوال

المجتمع المتواجد فيه وبين الإنسان البدائي الذي كان يعيش لنفسه إنسان طبيعي تسيره الحاجات إلى تحقيق الرغبات، لكن المشكلة في الحياة المتطورة المدنية أن الإفراط والمبالغة في علومها وفنونها وهي التي جعلته أقل منزلة من الحياة الأولى ولو لا أنه تجاوز الحد وأسرف في هذه الحياة الجديدة، مما جعله أحط منزلة منه في الحياة التي خرج منها كان يجب عليه أن يبارك بلا انقطاع الساعة السعيدة التي انتزعته من تلك الحياة الى الأبد والتي جعلت منه كائنا ذكيا ورجلا بعدما كان حيوانا محدود الفهم.(روسو، 2011،ص31) لكن وبالرغم من هذه الامتيازات الجديدة التي عرفها الإنسان المتمدن، إلا أن حالة المساواة التي تميزت بها المرحلة الأولى لم تبق كذلك وأن التفاوت والتمييز هو أساس العلاقات الاجتماعية .

تطور الحياة الاجتماعية بالنسبة للإنسان يؤصل له روسو من فكرة الملكية والتي بدأت من أول شخص قال هذا لي ووجد أناسا على قسط كبير من السذاجة فصدقوه، فكان هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني وكل ما شهده الإنسان من صراعات واغتيالات كان نتيجة هذا التحول الذي لم يجد أناسا يمنعوه من هذا الاعتداء، وهذا التملك والمسألة كانت بالإمكان أن تنتهي ولو أن رجلا قد هب فاقتلع الأوتاد أو ردم الحفرة وصاح بالناس قائلا : حذاري أن تصغوا إلى هذا الدجال المحتال فإنكم لهالكون آذ أنتم نسيتم أن الثمار للجميع وأن الأرض ليست ملكا لأحد (روسو،1972،ص79) .

لكن وصول الإنسان إلى فكرة التملك حسب روسو لم يكن بصفة تلقائية وفي فترة زمنية محددة بل هذ التغير نتيجة لسلسلة متراكمة من الأحداث والصعوبات، التي كانت تعترض الإنسان الناشئ من حصوله على الطعام وتوفيه لأمنه بعدما ظل في بيئة تهدد حياته من حيوانات مفترسة كل هذا دفع به إلى

ممارسة الرياضة وتقوية بدنه وصنعه للأسلحة هي بدايات تفوق الإنسان على محيطه وعلى بني جنسه إلا أن التفاوت ظل قائما وتزايد البشر والبؤس كلها أسباب ساعدت على التفاوت في السلوك والعادات، ولقد ظهرت أفكار المنافسة والتفضيل والتفوق ومن تم جاءت الشرور التي أصبحت خلاصة هذه التعقيدات وأضحى التسامح بعيدا جدا عما كان سائدا في مرحلة الإنسان الأول، وغلبت النزعة الفردانية التي تنتزع إلى التفكير بالذات وحدها وطغيان الأمزجة الفردية التي كونها الرصيد الثقافي الغربي، الذي لا يضع حدودا لمفهوم الحرية الشخصية التي تؤدي المبالغة فيها الى انتهاك سلوك التذمر والتهرب من المسؤوليات والتضحيات الاجتماعية التي يتطلبها الرفاه الاجتماعي والنمو المتوازن، علاوة على الآفات الاجتماعية التي تفرزها الأنانية مثل الإباحية والسلوكيات العدائية بين المتنافسين(روسو، 2011،ص35).

إن الظروف المذكورة أدت إلى خلق الشر بين الشعوب والتكتلات المجتمعية هي ينبوع الشر الأنانية الحرب الرق الرذيلة لا وجود لها في الإنسان، إلا أذا حدث الاجتماع وتحدد ذلك بعد ظهور الأسرة أو الكوخ، فكل أسرة كانت تجتمع داخل كوخ معين وتتعاون على أعمال معينة وفق البيئة وحسب الظروف التي تفرضها عليهم ويجتمعون حول مجموعة من الأشجار ويصبح الغناء والرقص الشغل الشاغل للرجال والنساء، تحت سقف ذلك الكوخ وأكثرهم أجادة للرقص والغناء مدعاة للتقدير وهي اللبنة الأولى في تجسيد التفاوت وبناء خطواته الأولى، وبالتالي السير نحو الرذيلة وظهور التفضيلات. ذلك أحسن من ذاك وأرقى مستوى وذكاء وقوة ويظهر الاعتزاز بالنفس والازدراء والحسد والذي يولد التنافس وفكرة الانتقام، التي تغذي الصراع والتفرقة لذا فالعودة الى الطبيعة الأولى حكمة في نظر روسو فهي مميزة بالغريزة والفطرة لتتسم بالبراءة والرأفة تحجم عن إيذاء الغير دون سبب كما يقول جون لوك: " لا ملكية لا إهانة ."

إن هذا التحليل الذي يقدمه روسو لتشكل التفاوت الاجتماعي على اثر التغير الحاصل في بيئة المجتمع وتفكير الفرد الأول الذي اتسم عقله بالنمو، وهذا ما يحيلنا إلى معرفة حقيقة التفاوت ومنبعه وفي واقع الأمر إشكالية تطرق إليها قبل أن يفسر مرحلة الانتقال، التي ولدت الفرقة وعدم المساواة فهناك نوعين من التفاوت أحدهما هو ما نسميه تفاوتا طبيعيا لأنه من وضع الطبيعة ولأن قيامه هو على فارق السن الصحة وقوى الجسم وصفات العقل والنفس وثانيهما هو ما يمكن تسميته بالتفاوت الأدبي أو السياسي لأنه تابع لنوع من الاتفاق ولأنه مبني على تراضي الناس(روسو، 1972،ص34)

والمشكلة الحقيقية حسب هذا الطرح تكمن في التفاوت الثاني والذي حدده روسو بالتفاوت الأدبي أو السياسي لأنه قائم على امتيازات وفضائل تميز بها جماعة على أخرى، وهي الأكثر اجحافا لأنها تهضم الغير ليست المادية فقط بل حتى الوجودية، الكرامة، الحرية، الشرف. إن معرفة مصدر التفاوت الطبيعي تكمن أساسا في من يتولى مسؤولية القيادة هل بالضرورة من يتميزن بالعقل أو الحكمة أو الفضيلة؟ هذه القضية دفعت الى زيادة البحث عن طبيعة الإنسان الأولى ومعرفة نمط حياته، ولم تكن إشكالية روسو الأساسية محاولة تخليص الإنسان الراهن المدني من عيوب المدنية على الأخلاق خصوصا ورده إلى الحياة الفطرية .

سجل روسو نفسه في تاريخ الفكر مربيا ومعلما وفيلسوفا وأديبا وثائرا، وكانت سيرته الحياتية والفكرية من أغرب السير التاريخية في تاريخ الفكر ،إن لم تكن أغربها على الإطلاق. ومن أوجه الغرابة والإدهاش في هذه السيرة أننا مع روسو نجد أنفسنا أمام عبقرية شمخت ونهضت على أعمدة القهر وعلى ثوابت الألم والهزيمة. وعلى هذا الأساس شيّد مملكته الفكرية الجبارة الفيّاضة بكل المعاني

الإنسانية النبيلة والخلاقة. لقد أحدث انقلابا فكريا في عصره وفي العصور التي تتابعت بعده، ولا غرابة في ذلك فهو مؤسس التربية الحديثة وصاحب أكثر النظريات التربوية عبقرية.

وما يدهش أن علم النفس الحديث والنظريات التربوية الحديثة، قد استجابت لاندفاعات روسو العبقرية الجامحة المتمردة. ولم تستطع الانتقادات التي وجهها العلماء والمفكرون والكتاب لنظريته التربوية والاجتماعية، أن تنال من شموخ هذه النظرية بل زادتها شموخا وتمردا. صحيح أن مظاهر النظرية قد تبدو غريبة مستغربة ولكن جوهرها الإنساني ما زال يحلق في الأجواء الشامخة.

ويبقى روسو من بين الفلاسفة الذين أثر و في البشرية كثيرا نتيجة الفكر التنويري الذي تميز به، لذلك لابد من قراءة فلسفة روسو من جديد وإعادة فهم مضامينها لمساعدتنا في تحقيق تربية صحيحة وتعليما راقيا بالإضافة إلى مجتمع سياسي عادل يسوده التعاون والتعاقد والاتفاق .

2.3 تربية المرأة أو صوفيا:

يكرس روسو الجزء الخامس من كتابة إميل لتربية المرأة التي أطلق عليها اسم (صوفي)، وهي تظهر مباشرة في الكتاب دون تمهيد يذكر. يؤكد روسو على أن أهمية التربية الجسدية لصوفيا حيث يتوجب عليها أيضا أن تتعلم فن الطهي والتطريز والموسيقى والعناية بالطفل وعدم الاهتمام بالعلوم. وهنا نجد أن روسو كان كلاسيكيا وعدوانيا في نظرته إلى المرأة فوظيفة المرأة هي إسعاد الرجل وإرضائه والقيام بتربية الأطفال.

فالمرأة المثقفة تكون وبالا على زوجها وأطفالها وعائلتها وخدمها ولكل فرد. وكثيرا ما يؤخذ على روسو هذا الموقف المتوحش من المرأة، ويرفض في هذا الجانب لأن آراءه متطرفة وعنصرية وغير إنسانية فيما يتعلق بدور المرأة. مع أن عبقرية روسو وحياته كانت وليدة عناية أنثوية خالصة ولا يخفى على من يقرأ سيرة حياته

أنه كان مدينا للمرأة الأم والصديقة والزوجة والعمة التي كثيرا ما كان ينهمر دمعه على عمته ومن عرف من النساء، وكانت لمسة الحنان الوحيدة في حياته هي لمسة المرأة. فصوفيا في هذا الكتاب لا تمتلك إلا على فضائل ثانوية وهي الفضائل التي تتصل بالحياة الزوجية والأسرية، وهي كما يصورها روسو شخص ناقص يحتل مرتبة دنيا في عالم إميل وحياته. (روسو،1956،ص123)

3.3 حرية الإنسان عند روسو:

اهتم روسو بالحرية الإنسانية فهي اساس وجوده وتمثل ماهيته، وضياعها يعني ضياع إنسانيته وجوهره، وتنازل الإنسان عن حريته بمعنى نزوله من صفته كإنسان وتخليه عن الحقوق والواجبات ونزع كل حرية من إرادته يعني بمثابة نزع كل قيمة روحية لأعماله، إن الحرية مبدأ أساسي في فلسفة روسو .(روسو، 2011،ص118)

ان اشكالية الحرية هي المبدأ الأساسي في الفلسفة الروسوية ، وهي أساس الوجود الانساني لأنها تمثل ماهيته التي ترتبط به ، وانعدام هذه الميزة لدى الانسان معناه انعدام انسانيته وجوهره لذلك ففي كل المجالات التي تطرق اليها روسو سواء كانت سياسية ، أخلاقية ، تربوية أو اجتماعية ، وتكون الحرية هي مبدأ التفكير ويرى روسو " تنازل الانسان عن حريته يعني أنك تنزله عن صفته كانسان وعن الحقوق الانسانية وحتى عن واجباته ،وليس هناك من تعويض ممكن لمن يتنازل عن كل شيء وتنازل كهذا يناقض طبيعة الانسان ونزع كل حرية من ارادة الانسان هو بمثابة نزع كل قيمة روحية لأعماله"(روسو، 2011،ص120)

ان الانتقال الى الحالة المدنية لا يفقد حرية الانسان بل بالعكس ، فهم روسو لهذه القضية حسب اعتقادنا هو فقدان لحرية زائفة مادامت العبودية في

مفهومها الواسع لا تعني الخضوع لشخص فقط أو سلطة مادية مهما كانت طبيعتها ،لأن طاعة الانسان لنوازعه وشهواته هي في حد ذاتها عبودية ،فالحرية في الحياة المدنية ، تحتوي على مفهوم شامل يتمثل في طاعة القانون وارادة المجتمع ، فالحرية لا تباع ولا تشترى .

لقد ثار روسو ضد أشكال الضغط التي تمارس ضد الانسان ،في كل مراحل حياته أين يحرم من حريته الحقيقية ،ومن حقه الطبيعي في ممارستها ويصف ذلك قائلا " ان الانسان المتمدن يولد ويعيش ويموت في رق العبودية وحين يسمرون عليه تابوتا ومادام على وجه الدنيا فهم مكبل بشتى النظم "(روسو،1965،ص186)

في تصور بعض الفلاسفة أمثال جون ديوي الحرية التي نادى بها روسو ، تنافي مسألة الحرية الحقيقية التي يجب أن تمنح للطفل ،لأنه فهم الحرية في اطار العواطف والانفعالات والأفعال الخارجية المستقلة عن الذكاء، لأن مبادئ روسو المتطرفة التي تقول بتحقيق فردية الطفل بصورة مبالغ فيها ، هي احترام أفكار الطفل الفجة احتراما عاطفيا ،ورفض ما في تجارب الكبار ومعارفهم الناضجة ، وإنكار مقصود لقيمة الغايات والوسائل التي يتضمنها النظام الاجتماعي، " ان الانسان كما نعرف مدني بطبعه اذ يستحيل تربيته عن طريق عزله عن المجتمع الذي يعيش فيه والذي يعتبر مصدرا مهما لنموه الاجتماعي والمعرفي اذ جعل روسو من الفرد مجرد أداه منعزلة لخدمة نفسه أولا ثم التنازل عن البعض من حقوقه في سبيل الآخرين اذ اكان لا بد له من ذلك "(أبو الضبعات،2009،ص60)

4. خاتمة:

من خلال بحثنا توصلنا إلى نتائج يمكن أن تساهم في توضيح نظرة روسو للإنسان حيث حوصلنا هذه النتائج في عناصر كالتالي:

يوضح روسو، مراحل الإنسان المتوحش التي استطاع اكتساب مهرات وخبرات من تجاربه في الطبيعة وتفاعله مع البشر، ويؤكد على مرحلة التأسيس التي يكتمل فيها وعي الإنسان، حيث أصبح يميز بين الخير والشر، وقد نفى التواصل بين الحالة الطبيعية والحالة المدنية، وإنما ربط بين العناصر التي شكلت الإنسان الاصطناعي، كما أكد على فكرة الملكية التي على ضوئها تتأسس الدولة كنتيجة لضمان بقاء الإنسان وحماية ممتلكاته والاعتراف بحقوقه.

لقد كانت إجابة روسو مؤيدة لحياة سعيدة عاشها الإنسان في الحالة الطبيعية معتمدا فيها على العاطفة أكثر من اعتماده على العقل، وفي المقابل يرد أسباب شقاء الإنسان إلى العقل وما ترتب عنه من علوم وفنون وتمدن حضاري، خلال المرحلة التي أعقبت الحالة الطبيعية، ويحملها مسؤولية انهيار القيم الإنسانية وتعاسة الإنسان . ويؤكد أن الإنسان البدائي كان يتصرف بالفطرة و يعيش حياة بسيطة توفر له حاجاته الضرورية من الطعام وتحميه من البرد القارص والحرارة الشديدة، إلى أن حاول التغيير في حياته التي ارتبطت بظهور التفاوت بني الناس وانتشار مختلف الشرور.

جعل روسو الحرية مبدأ مقدس، وتساهم القوانين في اقرار مبدأ المساواة والعدل بين الناس، وطاعة القانون الذي نضعه لأنفسنا هو الحرية، هذه الفكرة تتفق مع المبدأ الكانطي وموقفه من مسألة الحرية ، ولهذا يبقى من واجب الإنسان ان يناضل من أجل تحقيق حريته وفق القوانين المدنية، وتبقى رغبات الطبيعة استعدادا يجعل من ذات الفرد متكاملة تنشد التوازن في الأشياء،

وتكون الدولة حامية له ضمن فلسفة توفر الحقوق للجميع، وتفرض احترام القانون المدني وإرادة المجتمع، ويبقى الانتقال إلى الحالة المدنية لا يفقد حرية الإنسان بل يحافظ على ماهيتها فالحرية قاعدة الإنسانية.

5. قائمة المراجع:

1.إميل بريبه، (1979)، **تاريخ الفلسفة في القرن 18** ، ج 5، دار القلم، بيروت، لبنان

2.روسو جون جاك ،(1956)، **إميل والتربية**، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، مصر

3.روسو جون جاك ، (1972)،**أصل التفاوت** ، ترجمة بولس غانم، النخبة اللبنانية، بيروت

4.روسو جون جاك ،(2011)، **العقد الاجتماعي** ، ترجمة عبد العزيز لبيب، دار القلم، بيروت ، لبنان

5.يوسف كرم، (1990)، **تاريخ الفلسفة الحديثة**، دار القلم، بيروت، لبنان.

6.زكريا اسماعيل أبو الضبعات، (2009)،**الديمقراطية وفلسفة التربية**، دار الفكر،ط1، الأردن